شوقى ضيف.. الحقيقة والرمز

د. ماهـــر شفيق فريـــد

الأستاذ المساعد

بقسم اللغـــة الانجليزيـــة

لم أجىء لأمدح شوقى ضيف فهو ليس بحاجة إلى شهادة منى أو من غيرى، وقد شهدت له أعماله العلمية الصَّرْحية عبر حياة مباركة الثمرات موصولة العطاء، وهو، على أية حال، كذلك الممدوح الذى قال فيه الشاعر العربى القديم إنه تجاوز قدر المدح حتى كأنه بأحسن ما يثنى عليه يعاب. ولست من أصحاب الدراسات العربية – وإن كانت هذه اللغة همى ومشغلتى حين أفرغ من ضرورات كسب العيش – وإنما أنا دارس مدرس لآداب لغة أجنبية. ولست أتفق مع شوقى ضيف فى كل ما يذهب إليه من آراء بل أنا – بتوجهى الغربى – أخالفه كثيراً فكريا ووجدانيا وذوقيا، ولكن آية الأستاذ الكبير هى أنه يستثير فى قارئه دواعى المناجزة والاختلاف، ويدعوه إلى الجدل الشديد بل العنف الذى لا يراد به سوى وجه الحقيقة وحدها. أتحدث إذن عن شوقى ضيف من منظور دارس للآداب الغربية بعامة والأدب الإنجليزى بخاصة فأطرح سؤالا واحدا: ما الذى يعنيه شوقى ضيف لدارس الآداب الأجنبية؟

عندى أن أول ما يرمز إليه هو اعتدال النظر وسلامة الميزان وقيامه على أسس راسخة من العلم والذوق والدربة، بحيث لا تجمح به الأهواء. لقد برئ شوقى ضيف من دائين مخامرين لا أدرى أيهما شر من صاحبه: داء الاستخذاء الذليل أمام الثقافة الغربية من جهة، وداء الاستعلاء الذميم على هذه الثقافة والانكفاء إلى ماض لا شك فى عظمته ولكن لا شك أيضا فى أنه لم يعد يفى بكل ما جاء به عصرنا من جديد المعطيات من جهة أخرى. شوقى ضيف يمثل الثقافة العربية الناضجة حين تقف شامخة واثقة بذاتها، لا تعشى منها العينان إزاء أنوار حضارة غربية، ولا تنبهر بأضواء الماضى الذى يضفى عليه البعد الزمنى حرمة بل قداسة. لقد جاوزنا معه وبه مرحلة الانبهار بآراء المستشرقين، كما جاوزنا مرحلة الوقوف الجامد عند مقولات الأقدمين.

قرأ شوقى ضيف هذا كله وتمثَّله وأعمل فيه عقله الناقد ثم خرج بمركَّبه الخاص وهو مركب مصرى، عربى، إنسانى. هذا درسه الأول، وربما كان درسا خلقيا بقدر ما هو علمى.

وشوقى ضيف – فى زعمى – أعظم مؤرخ لتاريخ الأدب العربى فى عصرنا، وذلك فى تلك السلسلة الجليلة من المؤلفات: العصر الجاهلى، العصر الإسلامى، العصر العباسى الأول، العصر العباسى الثانى، عصر الدول والإمارات فى الجزيرة العربية والعراق وإيران، وفى مصر والشام، وفى الأندلس، وفى ليبيا وتونس وصقلية. إزاء هذا العمل الجليل تتضاءل كل تواريخ الأدب السابقة فى عصرنا، بدءا بجرجى زيدان، وانتهاءً بأحمد حسن الزيات، ومرورا بأحمد الإسكندرى. وكتاب برو كلمان بالقياس إليه لا يزيد إلا قليلاً عن مجموعة من الفهارس المملة، ضرورية ولكنها مملة. ويلحق بهذه السلسلة ثنائيته الخطيرة عن الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، والفن ومذاهبه فى النثر العربى، ففى هذه الكتب من الإحاطة الموسوعية، وشمول النظرة، والإلمام العميق بالمهاد الاجتماعى والفكرى والسياسى للأدب، والنظرة الحضارية المتكاملة، واكتمال أدوات الناقد الأدبى، واتساق المنهج وترتيب نتائجه على مقدماته ما يجعل منها آخر عمل يمكننا الاستغناء عنه فى بابه. لقد رسم شوقى ضيف لنا – نحن دارسى الآداب الأجنبية – خريطة دقيقة لتطور الأدب العربى، بكل تضاريسها ومرتفعاتها ومنخفضاتها، وبذلك يمكننا من رؤية الأمور فى منظورها التاريخى الصحيح.

وكما اتسع شوقى ضيف أفقيا تعمق رأسيا. فهناك دراساته فى جوانب بعينها من التراث كالتطور والتجديد فى الشعر الأموى، والشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية، والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، والبطولة فى الشعر العربى، والفكاهة فى مصر.

وهناك فنون الأدب العربى التى قصر عليها كتبًا مستقلة مثل الرثاء، والمقامة، والنقد، والترجمة الشخصية، والرحلات، والأدباء الذين أفردهم بالدراسة كابن زيدون، والبارودى، وشوقى، والعقاد، وأعماله فى الدراسات القرآنية، والنحو واللغة، وتحقيق التراث، وتلك السيرة الذاتية الجميلة التى نشرتها له سلسلة (اقرأ) فى جزئين تحت عنوان (معى).

ثم هناك كتابه الجزيل الفائدة (البحث الأدبى : طبيعته . مناهجه . أصوله . مصادره) وهو عمل عميم النفع لطلبة الدراسات العليا لا فى أقسام اللغة العربية وآدابها وحدها وإنما فى كافة الأقسام، حتى العلمى منها . وأشهد أن شوقى ضيف فى هذا الكتاب وغيره قد نمَّ عن معرفة وثيقة بالآداب الأجنبية ومناهج النقد الغربى، فإن فيه صفحات نافذة عن هذه الأمور بدءا بأفلاطون وأرسطو، وانتهاءً بإليوت ورتشاردز، ومروراً بسانت بيف وتين وبرونتير وغيرهم . وهذه الثقافة العريضة المنفتحة على فكر الآخرين هى التى صانته من الإسراف فى المحافظة ووقته شر الجمود . لم يكن شوقى ضيف – فى تعامله مع الظواهر الأدبية – قطعيا دوجماطيقيا منحصرا فى مذهب بعينه . إن هذا المغروس، حتى النخاع، فى الثقافة الكلاسية العربية قد وسعه – بما أوتى من شمولية الذوق، ورحابة النظرة، وأريحية النفس – أن يكتب مقاله الماجد البصير عن صلاح عبد الصبور، وأن يقدم الأعمال الشعرية الكاملة لشاعر مرموق من شعراء التجديد هو أحمد سويلم .

لست أعرف شوقى ضيف شخصيًا ولا يعرفنى . والمرة الوحيدة التى التقينا فيها – ولم تدم غير دقائق – لم تكن بالمناسبة السعيدة . كنت أجلس فى حجرة أعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة العربية فى هذه الكلية أنتظر أستاذًا بالقسم ضرب لى موعدا هناك .

ودخل الدكتور شوقى ضيف الغرفة– وكان فيما يبدو، يستخدمها فى ذلك الوقت من الأصيل فى التدريس لفصل صغير من طلبة الدراسات العليا– وحين رآنى جالسا وقال لى ماذا تصنع هنا؟ وأجبته بكل ما ينبغى من أدب، وإن تألمت، فى دخيلتى، كما هو طبيعى، من هذا المدخل الجافى . لكنى لم أحملها له، فإن استاذا عظيما مثله علمنى وعلم الآلاف غيرى لا تذهب بفضله خشونة عابرة، ولعلى قد صنعت مثل ذلك مع آخرين مرة أو مرات فى حياتى وأنا لا أدرى . شوقى ضيف – ولأتوخ الإيجاز – يمثل الدراسات العربية فى قمة نضجها وقد استوت على سوقها قوية عزيزة كريمة، وإن تكن مياه كثيرة قد جرت تحت الجسر نظرية وتطبيقًا منذ بدأ الكتابة بمجلة (الرسالة) وهو طالب بالفرقة الثالثة فى هذه الكلية . إنه من القلائل الذين كرسوا حياتهم للعلم وخدمة هذه اللغة الكريمة والتمكن منها، بحيث كان خادمها وسيدها فى آن واحد . وهو فى غزارة إنتاجه وحرصه على التجديد ويقظة ضميره العلمى مثل أعلى، يحسن أبناء هذا الجيل – المتعجل قطف الثمرة قبل استوائها – صنعا، بأن يتعلموا منه .

ويسعدنا أن نرى إقرارا بفضله فى مثل كتاب الدكتور عبد العزيز الدسوقى المسمى (شوقى ضيف رائد النقد والدراسة الأدبية)، وكتاب (شوقى ضيف : سيرة وتحية) بإشراف وتقديم الدكتور طه وادى. شوقى ضيف – عندى – رجل من طبقة محمد مندور، وعبد القادر القط، وشكرى عياد، وصقر خفاجة، وزكى نجيب محمود، وعبد الرحمن بدوى، وتوفيق الطويل، ولويس عوض، ورشاد رشدى، ومجدى وهبة، وحسين مؤنس، ومصطفى سويف. وإذا ذكرت هؤلاء الرجال فقد ذكرت – فى تقديرى – بعضا من أهم القمم الفكرية التى بلغها الفكر المصرى، بل العربى فى هذا القرن وذلك فى الجيل الذى أعقب جيل طه حسين العظيم، والعقاد الأكثر عظمة.

لك الإجلال سيدى، ولك المثوبة بما قدمت من علم نفعت به الناس، وأنرت العقول، وصقلت الأذواق. ولنا حق الاختلاف معك فى هذه النقطة أو تلك بل فى هذه المنطقة بأكملها، أو تلك من مناطق الدرس، فإنما تصلح حياة العلم – بل حياة الناس – بهذا الاختلاف المثمر الخصب.

د. ماهر فريد شفيق

قسم اللغة الإنجليزية

كلية آداب القاهرة

openkandil.com